لأن يدفعهم للتمسك بوحدتهم على الرغم من كل التأثير المعقد للتناقضات القومية الطاغية؟

بالطبع، ان من حق د. الشريف ان يكون له الرأي الذي يستهويه في معرض تحليل هذه المسألة.

لكن هذا لا ينفي خطأ منهجيا وقع فيه الكاتب حين لم يتصدّ لتبيان وجهات النظر الأخرى التي تناولت هذه المسألة سواء إبان احتدامها قبل وقوع الانقسام واثناءه، ام بعد ذلك. فالكتاب لا يتعرّض ابدا للمناقشات التي دارت حول الانقسام، وهو يهمل، ايضا، الآراء التي ظهرت على الجانب الشيوعي ــ اليهودي، بل يهمل، كذلك، التطورات التي تمت على هذا الجانب ولا يعرضها، او لا يعرض بعضها، إلّا من خلال المنظور العربي لها. والأهم من هذا ان الكتاب لا يتعرض الى العبر التي استخلصتها جهات عدة، بينها جهات شيوعية يهودية وعربية، بعد ان حل بفلسطين ما حل بها، وبعد ان دارت دورة الزمن وانتهى فرقاء قوميون عديدون، وليس الشيوعيون وحدهم، الى تأكيد اهمية الحل الديمقراطي وضرورة التعاون بين عرب ويهود من اجل انجاز هذا الحل.

ان د. الشريف، الذي لا يقع في الغالب في خطأ تقرير الأحكام الجاهزة، لم يسيطر تماما على حماسته للانقسام الذي أطفأ، عام ١٩٤٣، تجربة العمل العربي ــ اليهودي الوحيدة المشتركة والتي صبر الشيوعيون الفلسطينيون على حمل راياتها على مدى عشرين عاما قبل ان تسقط التعقيدات القومية هذه الراية وتدفنها لعدة سنوات لاحقة، وقبل ان يعود الشيوعيون انفسهم لحملها من جديد ويشقّوا الطريق للآخرين الذين لم يلبثوا ان استوعبوا اهمية الحل الديمقراطي وامكانيته، وادركوا ان حلا كهذا لن يتأتى إلّا اذا تركّز نضال العرب واليهود التقدميين ضد الصهيونية عدوة الجانبين، وضد السياسة العدوانية التوسعية لدولتها، وضد الأوساط الرجعية والامبريالية التي تدعم هذه السياسة.

لقد بدأ الشيوعيون الفلسطينيون، العرب واليهود، بمقولة صحيحة حين اعلنوا ان تجاوز التناقض القومي العربي ــ اليهودي في فلسطين، بما يعنيه هذا التجاوز من مواجهة للطغيان الصهيوني اليهودي الشوفيني والتسهيلات التي تقدمها مواقف ضيقي الأفق من القوميين المتطرفين، للمشروع الصهيوني، يتأتى بالتأكيد على اهمية وحدة المهيئين لادراك مخاطر المشروع الصهيوني، من العرب واليهود. ونشأ الحزب الشيوعي الفلسطيني على هذا الأساس مختلطا؛ وحين انقسم، بتأثيرات التناقض القومي، وبتأثيرات التطرف القومي هنا وهناك، ايضا، لم يؤد الانقسام الى ازدياد النفوذ الشيوعي، لا على الجانب اليهودي ولا على الجانب العربي. وفي كتاب د. الشريف نفسه، تتوالى الأمثلة التي تظهر عدم استجابة القيادة القومية العربية للحركة الوطنية الفلسطينية لطروحات الشيوعيين العرب حتى بعد ان قطعوا مع تجربتهم التنظيمية، الشيوعية، السابقة، وبعد ان اظهرت العصبة تفهما وتأييدا اكبر لسياسات القوميين.

ونظن ان د. ماهر الشريف لن يختلف معنا اذا قلنا ان التشدد في التمسك بالمعايير الطبقية، الشيوعية، قد يؤدي الى بعض الأخطاء حين يمارس بطريقة جامدة، ولكن خضوع الشيوعيين لتأثيرات التطرف القومي لا يوقعهم في اخطاء فقط، بل يجرّهم لما هو اخطر من هذا، ويحرمهم ويحرم الحركة الوطنية من قدرتهم على تحليل الأسباب العميقة للمسائل القومية ورؤية الحلول الصحيحة لها.

فيصل حوراني